

طلقات القصة الشعبية تتميز الحكايات الشعبية في الجزائر بالتركيز على رؤية إنسانية تعبر عن مشاعر وتجارب اجتماعية وثقافية تشبه تلك التي تواجهها الشعوب الأخرى. وعلى الرغم من تباين الظروف الاجتماعية واختلاف مواقع الثقافات، متجاوزة الانغماس في الانتماءات المحلية أو الوطنية. مجال التصوير إلى رؤية أبعد من الحدود السياسية والجغرافية للشعوب . ولا نستبعد أن مرجع هذا التصوير العام في القصص الشعبي يعود إلى أن القصص الشعبي لا يطرح قضية اجتماعية أو سياسية في حدود واقع اجتماعي معروف، ويكاد يطرح شعورا إنسانيا يأنف الظلم، ويكره الجبروت، ويسعى دوما إلى تحقيق الخير والعدل، ونشر الفضيلة بين الناس، وما من شعب في الحياة الا وقد عرف الظلم والقهر والاكراه بصورة من الصور عبر تاريخه الطويل، ومع هذا تبقى الحرية والكرامة هدفا إنسانيا تناضل الشعوب من أجل تحقيقه ولو في صورة أحلام مثالية، بعيدة عن الجراح والآلام التي تعانيها الشعوب ، كما هو الغالب على الطريقة التي ينتهجها القصص الشعبي وانطلاقا من هذا التصور المجرد لأحلام الطبقة الشعبية المكبوتة نلاحظ أن القصص الشعبي لا يواجه وضعها اجتماعيا قائما ، ولا يدعو إلى التمرد والثورة على ما يراه منافيا للعدالة ، ثم قيض الله له بطلا غيورا حرره من واقعه المؤلم، وأنقذه من جبروت الطغاة والأقوياء ، دون أن تقف الطبقات الشعبية من الجبابرة موقفا إراديا لتغيير واقعها، ودون أن يتخذ القصص من الظلم موقفا يوحى بالتمرد والثورة على الواقع . ما عدا تلك الرؤية السلبية التي تتيح بالباطل والشعبي، أن يصل إلى على أمل الوسائل مختلفة، ولكنها ليست وسائل ثورية بالضرورة العمل لاحظ - أحيانا ان البطل الشعبي بعد أن يصل إلى الحكم لا يهتم بقضايا الطبقات الشعبية إذ يكفي بالوصول إلى الحكم وكان القصص كان على القالة حكم قائم ، ولا يهمله يك هذه النهاية ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا أن القصص الشعبي يعتمد إلى وضع اطار أشمل من القضايا التي يريد طرحها، وقد ساعده على هذا التصور القضايا الانسان عاملان : العامل الأول استخدام القصص الشعبي للأساطير والخرافات كمنطلقات أساسية في التعبير بغض النظر عن الواقعية، والصدق في التعبير عن الواقع الاجتماعي، والعامل الثاني عدم ارتباط القصص بوضع اجتماعي له ظروفه وأوضاعه المتميزة، وبمعنى آخر يطرح القصص الشعبي تصورات اجتماعية أو سياسية من خلال شعور نفسي عام ، وهذا الطرح يجعل القصة الشعبية قصة افتراضية أكثر منها واقعية، يكن موضوعها افتراضي فإن أحداثها ووقائعها ضرب من الافتراض العجيب. وينبغي أن نشير هنا إلى أن هذه الخاصية لا تنطبق تمام المطابقة على قصص السير، سواء أكانت سيرة شخص، مثل القصص التي تصور شجاعة الامام علي رضي الله عنه، أو قصة مقتل سيدنا الحسين، أو قصة عنتر بن شداد، أو كانت سيرة جماعة مثل السيرة الهلالية، بطريقة لا يملك معها القدرة على انكار ما يريده القصص. وما نعينه بالأساطير والخرافات هنا هو مجموع الوسائل التي يستخدمها القصص الشعبي في التعبير، أعم من كونها أساطير وخرافات، مثل الكرامات، والوحي ، والخوارق التي يتقبلها الفكر الشعبي كمسلمات لا جدال في صحتها ، وقد استغلها القصص الشعبي كمتابع للقصة الشعبية ومن الصعب التمييز بين الأساطير والخرافات، وبين غيبيات تنحو منحى الإعجاز. والراجح أن هذا الاتجاه في القصة الشعبية - يستهدف - من بين ما يستهدف إيجاد نوع من التوازن النفسي بين واقع مؤلم تعيشه الطبقات الشعبية، وتعجز عن تغييره، وبين تصور مثالي تشعر فيه الطبقات الشعبية بالأمن والاطمئنان، لهذا يغدو من الصعب الجزم بواقعية القصة الشعبية أو عدم واقعيته ، وقد ألمحنا - من قبل - إلى أن القصص الشعبي لا يطرح قضايا محددة ، بقدر ما يطرح تصورا عاما، فإذا سلمنا بهذا الافتراض كانت النتيجة أن الواقعية في القصص الشعبي غير واردة . واقعية نفسية وبمعنى أدق، فالخير والعدل والمساواة بين الناس واقعية نفسية لا يختلف فيها اثنان، ومن هذا المنظور الأهداف القصة الشعبية يمكن اعتبارها واقعية لأنها تستهدف سعادة الانسان، وغرس القيم النبيلة في عالم يطحنه الظلم والقهر والحرمان . والراجح أن ما دفع القصص الشعبي إلى إنتهاج هذا الأسلوب هو تحاشي الصدام مع الحكام، وما يمكن أن يتعرض له من المحاذير اذا ما عبر عن الحقيقة ، لذلك نلاحظ أن القصص الشعبي لجأ إلى استعمال صيغ التنكير، كما يتجلى من مدخل القصة الشعبية كان ياما كان في قديم الزمان واحد السلطان» (1) وقد غدا هذا المدخل تقليدا قصصيا يتبعه القصاصون الشعبيون مهما اختلف الموضوع، أو الغاية من القصة الشعبية، وتبعا لهذه الظاهرة العامة يمكن القول بأن نشأة القصة الشعبية كانت نشأة سياسية، وبمعنى آخر أن القصص الشعبي كان معارضا للحكم القائم، فحاول أن يقنع موقفه بقناع من الوقاية التي غالبا ما تأتي ممزوجة بروح دينية خفية ، ظاهرها الدعوة إلى الفضيلة والخير،